٢ – الحكمة الصينية *

كونفوشيوس

بقلم الدكتور على العنانى

١ — ترجمة حياته

المفكر العظيم فى الحياة العقلية الصينية بعد الفيلسوف الكبير لاؤتسه هو كونفوشيوس، الذى بلغ الدرجة العظمى فى انتشار تعاليمه ، وفى تأثيرها النافع فى الأمة الصينية وأمم وكوريا واليابان .

ولد كونفوشيوس فى سنة ٥٥١ قبل الميلاد ، وتوفى سنة ٤٧٩ أو سنة ٤٧٦ ، وهو سلالة أسرة حسبية فى مقاطعة (لو) المعروفة الآن باسم شانتونج . وقد أحاط الصينيون ميلاده بعجائب ومعجزات ، شأن قادة الفكر العظام فى أممهم مثل زرادشترا عند الفرس ، وفيثاغورس عند الأغريق مثلا .

وقد فقد هذا العظيم والديه ، وهو لا يزال فى عهد الطفولة ، فنشأ فقيراً ، وتحمل – وهو فى ميعة الشباب – كثيراً من قسوة الدهر وشحه على أرباب العقول الكبيرة بالفطرة فى إبان الصبا ، وإن سالمهم عادة ، وفى الغالب بعد استكمال الرجولة ، وظهور تفوقهم فى النبوغ العقلى وحملهم ألوية التفكير .

لم يعدم الصبى الفقير كونفوشيوس رغم فقره التخرج على أفاضل المعلمين ، والتثقف فى الأوساط العلمية الراقية ، فبلغ فى ذلك درجة عظمى فى قليل من الزمن وفى حداثة السن ، لما كان عليه من الذكاء الفطرى وقوة العقل ؛ حتى أنه نصب نفسه للتعليم وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره ؛ فألقى دروساً فى الأخلاق ، وفى المبادىء الاجتماعية الموروثة عن الأسلاف الأولين ، وبخاصة فى تقاليد وأوضاع رؤساء الأسرة الثالثة المعروفة باسم الشى (١١٢٢ — ٢١٦)[1]

لم يكن كونفوشيوس ميالا إلى العزلة والانقطاع عن الناس ، كما كان لاؤتسه ، بل عاش

(*) راجع مجلة (العرفة) العدد الاول من السنة الثانية مايو سنة ١٩٣٢ ص ١٤

(١) راجع العدد الاول من السنة الثانية لمجلة النهضة الفكرية فى مقالنا (الدولة الصينية)

موظفاً ومعلماً ومتصلا بالأفراد والجماعات والحياة العملية العامة . ومثله فى هذا عند الصينيين كمثل سقراط عند اليونان ؛ وبدل أن يسبح فى محيط الخيال ، وأن يدفع ذهنه إلى عالم المعنى كلاؤنسه ، ويسير على سننه فى بذل جهوده الفكرية فى المباحث النظرية الفلسفية العويصة ، والبعيدة عن متناول عقول الجماهير ، عمد مباشرة إلى الحياة العملية وضرورات الزمن وحاجات الأمة ، ففكر فيها بغرض إنقاذها إنقاذاً عملياً لا نظرياً من كبوتها الاجتماعية الأخلاقية ، وانتشالها من الانحلال السياسى ، وعودتها إلى الوحدة القومية .

لهذا اختط كونفوشيوس لنفسه فى تفكيره وتكوين تعاليمه خطة عملية ، واصطنع لها طريقة ناجحة سهلة ، وهى الرجوع إلى المؤلفات الصينية الرئيسية المعروفة باسم (القوانين) ، فاستقى منها معارفه وعلومه وثقافته العامة وعمد إلى تهذيبها وشرحها ، ولم يدون كتباً عميقة فى التفكير النظرى يصعب فهمها على الجماهير ، بل جعل كل ما دونه نصاً فى آرائه وتعاليمه مباشرة بعبارة واضحة سهلة يفقهها القارىء بدون أى عناء .

وبناء على ذلك لم يكن كونفوشيوس فيلسوفاً يفكر فى أسرار الوجود ومبدئه الأول ، ولا باحثاً فى ماوراء الطبيعة ، كذلك لم تصل رسالته فى أمته إلى تكوين دين جديد ، لأن تعاليمه العملية قد قضت بالاحتفاظ بالدين الأسطورى القديم ؛ ورغماً من أن كونفوشيوس لم يكن فيلسوفاً ولازعيماً دينياً ، جاء برسالة من قوة معنوية عليا ، فانه كان عظيما فى قومه مقدساً فى أمته ، ولم تعرف الصين أكبر منه فى نوعه ؛ وكانت تعاليمه الأخلاقية العملية ـ على أنها غير جديدة فى العموم ـ مؤثرة محبوبة استمالت الأمة اليها وبلغت عندها مكانة لم تبلغها أى تعاليم أخرى ـ لذلك استند اليها الدين الرسمى والنظام الاجتماعى القوى فى البلاد ، ولا يزال التشريع الصينى يرتكز عليها حتى الآن .

كان كونفوشيوس فى تفكيره وفى نشر تعاليمه حراً لا يلجأ إلى مايرضى الحاكم ، ولا يترك ما يغضبه ، لأنه يغضبه ، بل يذيعه غير هياب ولا وجل ، وقد ترتب على ذلك ثورة البلاط منه فى بعض الأحيان ووقوعه تحت عقوبة السجن ؛ ورغم ذلك فانه قد وصل بمكانته السامية فى أغلب الأحيان إلى اجتذاب ولاء مولاه اليه ، حتى وصل إلى درجة وزير له (لكن هذه الرعاية السامية لم تلبث للسبب المتقدم أن انعكست عليه ، فاضطر إلى الهرب من البلاد والتجوال خارج الحدود الصينية ، ومكث على ذلك ثلاث عشرة سنة ؛ وفى سنة ٤٨٣ ق.م تمكن من العودة إلى وطنه ، وإلى عمله الذى ابتدأه من قبل ، حتى وافته منيته سنة ٤٧٩ ق . م أو ٤٧٦ ق.م

بقى كونفوشيوس بعد وفاته عند الأمة الصينية خالداً مقدساً ، كما بقيت تعاليمه كذلك ، وقد ارتفعت أسرته به إلى أقصى درجات الشرف والنبالة ، لدرجة أنها نالت الاشتراك مع البيت المالك فى مزايا واختصاصات كثيرة .

أقام الصينيون لهذا المصلح العظيم تماثيل ومعابد فى كل أقاليم الصين، واعتبروه أباً لعامة الشعب الصينى، وقدسوا روحه بطقوس العبادة فى معابده التى شيدت تقديساً له.

٢ — تعاليمه

ترجع تعاليم كونفوشيوس إلى خمسة أسفار قديمة ، تعرف عند الصينيين بالقوانين، وإلى أربعة كتب تعزى إليه، والأولى هى : يك — كنج (Jik-King) كتاب التغيير . شو — كنج (Schu-King) كتاب التاريخ . شى — كنج (Schi-King) كتاب الأناشيد . لى — كنج (Li-King) كتاب العادات والعبادة . يوك كنج (Iok-King) كتاب الموسيقى .

هذب كونفوشيوس هذه الكتب الخمسة وعلق عليها واستقى منها تعاليمه التى وضعها فى الكتب الأربعة الآتية ، وهى : لون — يو (Lun-Ju) كتاب الحوار . تا — هيو (Ta-Hiu) كتاب الناموس الأكبر . التشونج يونج (Tschung-Jung) كتاب الاعتدال . منج — تسه (Meng-Tse) اسم المؤلف وهو من تلاميذ كونفوشيوس.

ويظهر أن هذه المؤلفات الأربعة لتلاميذ المعلم: ما عدا الكتاب الأول فانه من وضعه الخاص به . وتشتمل هذه الكتب المذكورة على مجهود كبير فى الأخلاق والعادات القديمة والنظم الاجتماعية ، وليس فيها مطلقاً أى تعرض لنظريات ما وراء الطبيعة ولو جاءت مناسبة للكلام والبحث فيها تخلص كونفوشيوس بقوله : « كل ما لا يتكلم فيه المعلم إنما هو معجزات وقوى وحركة وأرواح » ؛ ويتتبع هذه المؤلفات يصل الباحث إلى الحكم ، بأن الغرض منها ليس البحث فى الجهة العقلية النظرية، بل الاتجاه المباشر إلى الحياة العملية التى ترمى إلى إعادة الشعب الصينى إلى الأخذ ثانية بالأخلاق الفاضلة المرتكزة على التقاليد والعادات القديمة الموروثة عن الأسلاف الذين عاشوا فى هناء وسعادة بهذه العادات وتلك التقاليد . والخلاصة من ذلك ومما تقدم من ترجمة حياته، أن هذا المصلح القدير لم يحاول وضع مذهب فلسفى، ولم يضع طريقة عالية ولا بحوثاً نظرية، ولم يقصد إلى وضع دين جديد ، رغم أنه قد تعرض هنا وهناك فى الكلام فى السماء (الاله) وتدبيره وانفراده بالقضاء والقدر اللذين لا يقاوما ولا يعارضان. والنتيجة لذلك هى الحكم بأن تعاليم كونفوشيوس ليست فلسفة ولا نظراً عالياً ، بل هى آراء قويمة حاسمة فى الفضيلة والأخلاق وتهذيب الحياة الاجتماعية العملية فى هذه الحياة الدنيا وحدها دون أى نظر فيما وراء ذلك .

٣ — الانسان الفاضل

اذا بلغ الانسان الفضل الكامل كان مقدسا ، وطبيعة الانسان من حيث هى محض خير . والخير المحض موجب للقداسة : فالانسان المقدس ممكن وجوده، غير أنه لا يوجد فى أفراد

الانسان ـ من وصل الى هذه الدراسة ـ سوى عدد قليل. على أن كونفوشيوس يقول : « لا أعرف من هذا العدد أحداً ، ولهذا اكتفى لتكوين الانسان الفاضل بالقدر الأخلاق الذى يرفعه إلى درجة السمو فى الخلق والنبالة فى المعاملة .... فالانسان الفاضل عنده من الجهة العملية هو الانسان النبيل الذى يتمتع فى ظاهر طبيعته وباطنها وفى تهذيبه الأخلاق بالانسجام العام الموصل إلى الاعتدال بالجمع بين الافراط والتفريط .

٤ ـ الفضائل الأساسية

والفضائل الأساسية عند كونفوشيوس التى يرى أنها توصل إلى تكوين الانسان الفاضل هى : الحكمة ـ النبيل الانسانية ـ العدالة ـ الأمانة ـ الشجاعة .

والحكمة موصلة إلى الاعتدال، والانسانية تعلم الفرد كيف يكون إنسانا كاملا فى المجتمع، ينظم علاقاته الاجتماعية مع الناس تنظيما صحيحاً فاضلا ؛ وبذلك تنشأ العدالة السامية المهيمنة على المجرأة ، والمنظمة لحدود الشجاعة ، والباعثة على الأمانة ، والدافعة إلى العناية بالعادات القديمة والتقاليد الموروثة .

٥ ـ الواجبات

وأهم واجبات الانسان عند هذا المعلم الصينى هى رعاية الفضائل الاجتماعية الخمس المذكورة سابقا ، فبها يهذب الفرد نفسه حتى يصير مثلا لغيره يقتدى به، وبها يعرف واجبه نحو الوالدين والمعلم والرئيس والوطن والمواطنين .

بهذه الواجبات والسير على مقتضاها يسعد الفرد وتسعد الأسرة ويصبح المجتمع فاضلا .

انتشرت هذه التعاليم فى البلاد الصينية، وأخذ بها جميع أفراد الشعب، وكانت عندهم المثل الأعلى ، ثم انتقلت إلى البلاد المجاورة للصين ، والتابعة فى عقليتها إلى العقلية الصينية ، وهى تام أوكوريا واليابان .

وقد استمرت هذه التعاليم سائدة فى دولة الوسط إلى الوقت الحاضر، رغم مادخل عليها من التعاليم البوذية ، وما وصل اليها من المبادىء الاسلامية والنواميس المسيحية ، ومع ذلك فانها لم تسلم من العدوان عليها فى تاريخ تطورها. ففى منتصف القرن الثالث قبل المسيح وبعد سقوط أسرة إنشى وقيام أسرة اتزن قام قيصر شى ـ هوانج ـ تى (Schi-Hoang-ti) بتوحيد الدولة بالقوة لابتعاليم كونفوشيوس . وكان من أمره أن أمر باحراق كتبه فى سنة ١٣٢ قبل الميلاد ، لأنه كان يبغضه ويبغض كتبه ومدرسته، ميالا إلى لاؤتسه وفلسفته ، وقرر عقوبة الاعدام على كل من يتكلم فى شأن هذه الكتب محبذاً لها ، ورغماً من ذلك فقد بقى منها بعض النسخ التى مكنت من دوام تعاليم كونفوشيوس حتى الآن .

على العنانى

ثروة المعادن الاقتصادية فى افريقيا

من أهم موارد الثروة الاقتصادية فى العالم ثروة المعادن وصناعة تعدينها ، إذ تستخرج كنوز دفينة ومواد معدنية ثمينة . وقد اختصت أفريقيا بمقدار وافر من المعادن العظيمة الأهمية التى تستخرج بنطاق واسع ، مما يجلب لها ملايين الجنيهات ، ولا تزال تعطى إنتاجات جديدة فى عالم الوجود ، وتكون هذه الثروة أساساً متيناً يبنى عليه نجاح مستقبل البلاد. وإليك بياناً تفصيلياً عن المعادن الهامة وإنتاجها المالى :

أولا — الماس : تعتبر افريقيا من أهم ممالك العالم الشهيرة باستخراجه : حيث يوجد على شكل صخور بركانية ومنبعه «الترنسفال». ويقدر ما يستخرج من هذه البلاد بنحو ٩٥ فى المائة من مجموع ما ينتجه العالم . وقد استخرج فى خلال الخمسين سنة الماضية من جنوب افريقيا مقدار عظيم ، إذ أن قيمة ما صدرته فى سنة ١٩٢٧ (١٢ر٠٨٢ر٥٠٠) جنيه مصرى، بزيادة نحو (١ر٦٦٥ر٩٩٠) جنيها، عن قيمة ما صدر منها فى السنة التى قبلها ، وذلك بالنسبة لما استخرج من الترنسفال . وقد أسست هناك حديثاً مناجم أهلية ، وهى سائرة فى سبيل النجاح التام .

ثانياً — الذهب : لقد أنتجت مناجم تعدين الذهب فى سنة ١٩٢٧ عشرة ملايين أوقية من هذا المعدن النفيس، وتقدر قيمته بنحو (٤١ر٤٤٠ر٢٨٠) جنيها مصريا، بزيادة (٧٣١ر٢٥٠) جنيها تقريباً عن السنة التى قبلها. والعمل يسير فى تحسين مستمر وتقدم مطرد، ففى الستة الشهور الأولى من سنة ١٩٢٨ أنتجت الترنسفال وحدها (٥ر١١١ر٨٢٦) أوقية من الذهب، وهى تعتبر من أهم موارد هذا المعدن فى العالم. وإن (جوهانسبرج) «مدينة الذهب» ، قد أنتجت وحدها ما مجموع قيمته (٨٩٢ر١٢٥ر٠٠٠) جنيه مصرى منذ إنتاجها ذلك المعدن، وهذا من أهم المزايا الاقتصادية فى تاريخ حياة جنوب أفريقيا فى أثناء الأربعين سنة الأخيرة . وإن الشركات الأساسية لتعدين الذهب بجنوب أفريقيا يقدر رأس مالها بنحو (٣٣ر٠٩١ر٥٠٠) جنيه مصرى وعندها من الخامات ما قيمته (١٣٦ر٥٠٠ر٠٠٠) جنيه، أى أن المتوسط المئوى للارباح يقرب من ١٦٠ فى المائة ، وأنه إذا ما هبطت الضرائب الباهظة التى تفرضها الحكومة هناك على صناعة تعدين الذهب ، يؤمل أن تمتد حياة هذه الصناعة فى المستقبل. وهذا مع العلم بأنه يترك جزء كبير من الخامات لا يستغل ، بالنسبة لأن ما يستخرج منها لا يعادل ما يصرف عليها ، فان متوسط العمق الذى وصلت إليه عمليات التنقيب فى هذا المنجم سنة ١٩٢٧ ، كان فوق الميل تحت السطح ، وهو عمق لا بأس به ، إذ أن أعمق حفرة فى العالم هى على عمق رأسى يقدر بنحو ٧٦٠٠ قدم أى نحو الميل والنصف تقريباً . ولا يخفى أن نقل الرجال والمواد إلى مثل هذه

الأعماق أمر شاق فى ذاته ولا سيما أن التهوية الكافية للمنجم تحتاج إلى عناية مستمرة يرعاها الموظفون المنوطون والمسئولون عن هذا العمل خاصة ، وتحتاج أيضاً عملية إمداد وتوزيع الهواء النقى فى الطبقات السفلى ، إلى مراقبة دقيقة ؛ ولا يخفى أن العمال الذين ينزلون تحت الأرض للعمل، يجب تمويدهم فى البدء على الأعمال البسيطة حتى يمكنهم أن يقوموا بعملهم خير قيام . وكل هذه الأمور (خلاف نقل أعمال المنجم والأشياء اللازمة للاستعمالات) لها تأثير يعوق المنتج مالياً. ويعمل دائماً عمل خاص لتحاشى انفجارات الضغط ، وفى عدة أحوال يجب ترك بقايا الكتل، حيث إنها تصبح تحت تأثير ضغط عظيم، فيترك لهذا الغرض مساحات واسعة تبلغ نحو ١٠ فى المائة من مقدار الكتل المستخرجة قليلة من هذا المعدن .

أما القطر المصرى فيستغل الآن كميات قليلة من هذا المعدن ، بينما كانت مصر فى عهد المصريين القدماء ، هى المصدر الوحيد لاستخراج هذا المعدن على نطاق واسع ، ويتضح ذلك مما اكتشف من الآثار النفيسة المغشاة بالذهب الخالص .

ثالثاً — الحديد : تجرى التمهيدات لتأسيس صناعة عظيمة للحديد والصلب فى بلاد افريقية الجنوبية المتحدة ، حيث لا يوجد مجال للشك بأن تكون هناك موارد اقتصادية ذات أهمية عظمى . وقد أقام الدكتور (واجنر) الذكرى عن وجود رواسب الحديد فى بلاد اتحاد جنوب أفريقيا ، لأنها تسر الخاطر وهى أهم المساحات التى عرفت هناك. وإنه بمقارنة ما ينتج من اتحاد جنوب أفريقيا بما تخرجه البلاد الأخرى، نرى أن الخامات التى بهذه الرواسب العظمى لا يضارعها غير الهند والولايات المتحدة والبرازيل وفرنسا فقط ؛ وأن مقدار النوع الأعلى من الخام يبلغ مقداره ٢٢٢ر٠٠٠ر٠٠٠ طن .

رابعاً — المنجنيز : قد اكتشفت رواسب عظيمة من المنجنيز الخام منذ بضع سنوات غرب مدينة كبرلى بنحو ١٢٥ ميلا ، وهناك اتفقت الحكومة على بناء فرع للسكة الحديد يصل البقعة الموجود بها المنجنيز بالخط الأصلى ، ولما كان حاجز المنجنيز جسما شديد الصلابة متماسك الأجزاء، فبتأثير العوامل الجوية عليه يكون دائماً أملس. وهذا الخام لشدة صلابته لا تتفتت منه إلا قطع صغيرة أثناء النقل مما جعل لهذه الميزة الطبيعية أهمية خاصة . وبالنسبة لصعوبة تمييز مناجم المنجنيز الاقتصادية قد حللت كتل كبيرة فى المعامل الكيمائية (بجوهانسبرج) وأسفرت النتيجة عن صلاحية الخام من الوجهة الاقتصادية ، وخصوصاً عند ما قارنها الدكتور هاول (بالمصلحة الجيولوجية) بالخامات الأخرى التى تستخرج من أهم بقاع هذا المعدن فى العالم. وإن الدكتور هاول وآخرين من الاخصائيين بمعرفة المنجنيز بما فى ذلك بعض المهندسين الأمريكيين أصحاب الشهرة العالمية الواسعة، أجمعوا على أن الصفات الكيمائية للخامات التى تستخرج من هذه البقاع جديرة بالأهمية والاعتبار. وما قاله الدكتور هاول بهذا الصدد: إن رواسب المنجنيز تدل على وجود كميات كبيرة من الحديد الخام ، فهى تحتوى من ٤٢ فى المائة إلى ٥٨ فى المائة من معدن

المنجنيز، ومن ٣٫٢٥ فى المائة إلى ١٠٫٩٠ فى المائة من الحديد، ومن ١٫٧٥ فى المائة إلى ٧ فى المائة من السليكا؛ وليس بها فوسفور البتة، وعلاوة على ذلك فان خواص الخام الطبيعية كعدم قابليته للسحق وسهولة كسره إلى قطع بالحجم المطلوب جعلته من الموارد ذات الاهمية العظمى. وإن التسهيلات التى عملت هناك جعلت تعدينه لا يكلف الكثير. ويمكن استخراج المنجنيز الخام بواسطة طريقة الصب، وهذه الطريقة كما يظهر أرخص وسيلة لاستغلال هذا المعدن واستخراجه بكميات وافرة، فان الكميات العظيمة التى تستخرج من الخام لا ينضب معينها. وليس ما يستخرج من المنجنيز قاصراً على تصديره بالسفن فى عرض البحار فحسب، بل ينتظر أن تقام له المصانع فى هذه البلاد ليصنع منه منجنيز الحديد الكهربائى، وإن ما ينتظر عمله يبعث على الأمل والنشاط لجنى الفوائد الكبيرة فى القريب مما قد يصبح صناعة جديدة منتجة.

خامساً — البلاتين: ولو أنه لا توجد زيادة محسوسة لانتاج البلاتين من (الترنسفال) بافريقيا إلا أن ما ينتظر استخراجه من هذا الفرع من الصناعة قد تحسن عن ذى قبل بكثير، وتوجد هناك شركة هامة، برسم مهندسوها الخطط كى ينتجوا هذا المعدن النفيس من نبات خاص، ليستخرج بنطاق واسع. ويؤمل أن ستساعد هذه الطريقة التى اكتشفها المعدنون والكيماويون جنوب افريقيا على إنتاج البلاتين بثمن أقل من أى ثمن آخر، حيث إنه لندورة هذا المعدن وزيادة طلبه أصبح ثمنه أغلى من الذهب.

سادساً — الاسبستوس أو الحرير الصخرى: هو معدن لا يحترق بالنار بل شديد المقاومة لها، وتصنع منه الخيوط لشباك مصابيح الاضاءة بالشوارع، وغير ذلك من اللوازم الهامة. وقد اتجهت الأنظار أخيراً إلى أنه يوجد بجنوب افريقيا كميات هائلة من الحرير الصخرى الجيد لا سيما وأن الزبائن التى تطلب هذه الخيوط تسأل عن زيادة المنتج ويقدمون استعدادهم لزيادة الثمن. وحقيقة الأمر أن هذه البلاد المتحدة تمسك بيمينها دفة هذا الصنف، إذ أنها تحرز قصب السبق بالنسبة لوجود الأنواع المختلفة، ولأنها تنتج منه الدرجة الأولى من حيث الجودة. ويوجد من هذا المعدن بمدينة الرأس مساحة يبلغ طولها ٢٥٠ ميلا وعرضها نحو ٣٠ ميلا، ويوجد أيضاً فى الترنسفال وناتال بكميات وافرة. ومن ذلك نرى أن ما تنتجه مدينة الرأس وحدها من الحرير الصخرى هو أكبر مساحة عرفت من هذا المعدن. ومن البلاد التى تنتج النوع الأبيض لا يوجد غير كندا وروسيا فبذلك يكون باتحاد جنوب افريقيا كميات هائلة من هذا النوع خلاف وجود الصنف الأزرق اللون، وقد أصبح النوع الأبيض يستخرج بمصر على نطاق واسع.

مما تقدم يتضح لنا جليا أن افريقيا من القارات العظمى الغنية بمناجم ثمينة من الذهب والماس والحديد الخام والفحم الحجرى والمنجنيز والبلاتين .... الخ؟

كامل نجيب
مصلحة الطبيعيات — مصر